# تشكُّل العربية وحركات الإعراب

محمد علي عبد الجليل[1]

**ملخَّص:**

إنَّ "العربية" كَلِسانٍ معياريّ هي لُغة صنَعها النُّحاةُ المُؤسِّسون [≈لُغة شِبْه مَصطَنَعة، *لُغة مُطوَّرة*] اعتماداً على مَبدَأ "الفصاحة"، أي: المفهومية والوضوح لأكبر عدد ممكن من المتكلِّمين. فاستبعدوا أغلبَ الظواهر اللغوية المحلية أو الإقليمية التمييزية في لَهَجات العرب، أي استبعدوا "اللُّكْنات" المحلّية التي تُعيق صناعةَ لِسانٍ موحَّد. وقد استنَدوا إلى القُرآن والأدب (الشعر الجاهلي وبعض كلام العرب) كمراجِعَ نحويةٍ ومفرداتيةٍ. ثمَّ أضافوا التشكيلَ [حركاتِ الإعراب] كزينةٍ وتسهيلٍ للنُّطق.

**كلمات مفتاحية:** العربية – لُغة – تقعيد اللِّسان – حركات الإعراب.

**Résumé :**

La « *ʿarabiyya* » [l'arabe] en tant que langue normalisée [koinè, langue-toit [Dachsprache], langue véhiculaire] est une langue inventée par les grammairiens fondateurs [≈langue semi-construite, *Ausbausprache*] sur la base du principe de « l'éloquence », c'est-à-dire de la compréhensibilité et de clarté pour un plus grand nombre possible de locuteurs. Ils ont ainsi

---

[1] محمد علي عبد الجليل: باحث مشارك في معهد الإرِيمام [IREMAM] (Institut de Recherches et d'Études sur les Mondes Arabes et Musulmans) (معهد البحوث والدراسات حول العالَم العربي والإسلامي) ومدرِّس في جامعة آيكس–مرسيليا (جنوب فرنسا)، حاصل على الدكتوراه في الترجمة والإسلاميات من جامعة آيكس–مرسيليا (٢٠١٧)، حول الموضوع: *Approche polysémique et traductologique du Coran. La sourate XXII (Al-Ḥajj [le pèlerinage]) comme modèle.* [*مقارَبة بوليسيمية وترجماتية للقرآن. سورة الحج نموذجاً*]، تحت إشراف: ريشار جاكمون [Richard Jacquemond]، تاريخ المناقشة: ٢٣ / ١١ / ٢٠١٧.

exclu la plupart des phénomènes linguistiques locaux ou régionaux discriminatoires dans les dialectes arabes, c'est-à-dire ils ont exclu les « accents » locaux qui entravent la fabrication d'une langue unifiée. Ils se sont appuyés sur le Coran et la littérature (poésie préislamique et certains parlers des Arabes) comme références grammaticales et lexicales. Ensuite, ils ont ajouté la flexion désinentielle [voyelles de désinence (déclinaison)] comme décoration et fluidité dans l'élocution.

**Mots clés :** La *ʿarabiyya* – parler – codification de la langue – flexion désinentielle.

**Abstract:**

The "*ʿarabiyya*" [Arabic] as a standardized language [Koine, Umbrella language [Dachsprache], vehicular language] is a language invented by the founding grammarians [≈semi-constructed Language, *Ausbausprache*] on the basis of the principle of "eloquence", i.e. comprehensibility and clarity for as many speakers as possible. They thus excluded most of the discriminatory local or regional linguistic phenomena in the Arabic dialects, i.e. they excluded the local "accents" which hinder the production of a unified language. They relied on the Koran and literature (pre-Islamic poetry and certain parlances of Arabs) as grammatical and lexical references. Then they added inflectional ending [vowels of ending (declension)] as decoration and fluency in speech.

**Keywords:** The *ʿarabiyya* – dialect – codification - vowels of ending.

علَّمونا في المَدارسِ أنَّ اللُّغةَ العربية كانت لغةً مُعرَبةً [مزوَّدة بحركات إعرابية في أواخر كلماتها] وأنها كانت في أوج تَطَوُّرِها عِندَ ظُهورِ الإسلام ثم بدأَت تَفسِد وتتدهور مع الزمن فاقدةً حركاتِ الإعراب مع توسّع الإسلام واحتكاك العرب المسلمين بثقافات الأُمَمِ المُجاورة. ولكنْ إلى أي مدىً هذه الفرضيةُ صحيحة؟ هل فعلاً كانت العربية إبّان ظهور الإسلام لغةً معربة تمتلك نظاماً إعرابياً في أواخر كلماتها يشير إلى موقع الكلمة ووظيفتها في الجملة؟ هل حركاتُ الإعراب (الرفع والنصب والجر والجزم والبناء) سليقةٌ وأصيلةٌ فعلاً في العربية وجزء بنيوي من طبيعة العربية؟ ثم ما هي العربية أصلاً؟

قبل أن نتطرَّق إلى حركات الإعراب، من المهم أن نوضح ما هي "العربية" وما مكانتها بين لغات العرب.

لقد أشار المُؤَسِّسُ الفِعليّ للعربيَّة أبو عمرٍو بن العلاء البَصريّ ( ٦٨٩ – ٧٧٠ / ٧٧٤ م ) إلى كيفية وضع "العربية" من خلال عملية غربلة وانتقاء: سُئلَ أبو عمرو بن العلاء البصري [ المؤسس الفعلي للعربية ] ( ٦٨٩ – ٧٧٠ / ٧٧٤ م ): "أَخْبِرْني عَمَّا وَضَعْتَ مِمَّا سَمَّيتَ «عَرَبِيَّة»، أَيَدْخُلُ فيه كلامُ العرب كلُّه؟ فقال: "لا". فقيل: "كيف تَصنع فيما خالفَتْك فيه العَربُ وهُمْ حُجَّة؟" قال: "أَحمِلُ على الأكثرِ وأُسَمِّي ما خالفني «*لُغات*»". ( السيوطي، *المُزهِر*، ج١، النوع التاسع، ص ١٨٤ – ١٨٥، طبعة بيروت، ١٩٨٦ ).

يَجْدُرُ التَّنويهُ إلى أن "اللغة" كنظام لِسانيّ رسميّ موحَّد جامِع مشترَك بين عدة مناطق معتمَد سياسياً ( ومُستخدَم في التواصل الكتابي ) كان يُشار إليها بكلمة "لِسان"، بينما كان يُشار إلى التنويعات المحلية المَحكية لهذه اللغة الرسمية الوسيطة المعيارية بكلمة "لُغة". حالياً، نستخدم كلمة "لغة" ( بدلاً من "لِسان" ) للدلالة على النظام اللغوي المعياري المستخدَم في الكتابة الرسمية، ونستخدِم كلمة "لَهْجة" [ و"لُكْنة" ] ( بدلاً من "لُغة" ) للدلالة على التنويعات المحلية المحكية غير الرسمية في اللغة الواحدة.

الجدير بالذِّكْرِ أنَّ عِلْمَ النقوش أَظْهَرَ حَتَّى الآنِ أنَّ مَهْدَ نُشوءِ "العربية" هو بلاد الشام وشمال الحجاز. فأَقدَمُ النقوشِ ( كـ"نقش حَرّان اللَّجاة" [ حوالَي ٥٦٨ م ] في جبل العرب جنوب سورية و"نقش النَّمارة" [ نقش امرئ القيس، بالخط النبطي ] [ حوالَي ٣٢٨ م ] قُرب جبل العرب )[2] كُتِبَت بلغة هي الأقرب إلى لغة القرآن. كما أشارت النقوشُ أيضاً إلى أنَّ المَلِك جُنْدُبو [ جُنْدُب ] الَّذي شارك في معركة قَرقر ( ٨٥٣ ق. م. ) شمال غرب سورية ضد الدولة الآشورية هو ملك عربي. وكانت مدينة أدوماتو [ دومة الجَندل ] شمال الجزيرة العربية مركزاً سياسياً عربياً أساسياً وعاصمة مملكة قيدار العربية ( القرن الثامن قبل الميلاد ). والأرجح أن العربية الأولى الأم [ الأقرب إلى لُغة القُرآن ] كانت تُتَكَلَّم في مملكة الأنباط، كما أشار الباحث أحمد الجَلاَّد[3]

---

[2] زكريا محمد، *نقوش عربية قبل الإسلام*، دار الناشر، الأردن، ٢٠١٥، ص ٧ و٩٥.

[3] من محاضرة لأحمد الجلاد منشورة على اليوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=quXrkSV8g3M ؛ https://www.youtube.com/watch?v=dHRbuu8c8nw. أحمد الجلاد ( ١٩٨٥ ) باحث أميركي، من أصل عربي، مختص بالتاريخ المُبكِّر للعربية ولغات شمالي الجزيرة العربية، حاصل على الدكتوراه في لغات الشرق الأدنى وحضاراته ( جامعة

الذي أضاف أن لغة الأنباط نجَت من الانقراض بعد انقراض مملكتهم بسبب كونها لغة تجارية حيادية في حين أن الآرامية بقيت أسيرة المعابد.

**لِوضْعِ لُغةٍ مشتركَة وسيطة عابرة للَّهَجات** [أيْ: لِسان يتجاوز اللغاتِ المحلية]، **اعتَمَدَ واضعو اللُّغةِ الـمعيارية [الـمُشتركَة] على مَبدَأ الفصاحة، وهو المفهومية والوضوح** لكل الناطقين باللغة بغَضِّ النَّظرِ عن مناطقهم ولَهَجاتهم. فالفصيح، لغةً، هو الصافي الخالص من الشوائب [يُقالُ: "لَبَنٌ فَصيح": بلا رَغْوة. و"الفَصح": خُلوص الشيء مما يشوبُه.][4] واصطلاحًا: كلام العربِ الواضح كثير الاستعمال [على ألسنة الفُصحاء]. فالفَصاحةُ هي "أنْ يَكونَ اللفظُ على ألسنة الفُصحاء الموثوق بعربيتهم أَدْوَرَ واستعمالُهم له أَكثرَ" (الـجاربُرَدي [ت. ١٣٤٥]، *شرح الشافية*).

فمعيارُ الفَصاحة هو كَثرةُ الاستعمال عند متكلِّمين محدَّدين (سُمُّوا بـ"العرب الموثوقين" أو "الفُصحاء الموثوق بعربيتهم")، وعلى الأرجح هم النُّخبة النافذون في السلطة السياسية، فعلى

هارفرد، ٢٠١٢). عَملَ مُحاضراً في جامعة لايدن، هولندا (٢٠١٣ – ٢٠١٨)، وانتقل مؤخَّراً للعمل في جامعة ولاية أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية.

[4] ربطَت الباحثة اللغوية جورجين أيوب (معهد الإينالكو INALCO في باريس) (في مقالها*: « Un idiome harmonieux et pur: Le trésor enseveli » ["لُغة متناغمة ونقيَّة. الكَنز المدفون"]) بين الجذر العربي لكلمة "فَصيح" ومعنى "الفصح" العبري معتبرةً أنّ "الفَصيح" والفصح" من جَذرٍ ساميٍّ واحِدٍ، مشيرةً إلى أنَّ الكلمتين تشيران إلى فكرة العبور الإيجابي من الظلمة إلى النور ومن العبودية إلى الحُرّية. وعلى ما يبدو، لا علاقةَ دلاليةً بين جَذْرِ "الفَصيح" (وهو "الـفَـصح" [بفتح الفاء] بمعنى: *الصفاء*) وبين "الـفِـصح" [بكسر الفاء] (العيدِ اليهودي والمسيحي، بمعنى: *العُبور*). فـ"الـفَـصح" العربيّ [أو "الـفَـصاحة"] هو "الـخُلُوّ من الشّوائب"، وبالتالي هو: "الصَّفاء" و"الوُضوح". أمّا "الـفِـصح" العبريّ (من العبرية: פֶּסַח پـيـسَح) فهو "العُبور" [من أرض العبودية إلى أرض الحُرّية] والقَـفز والخَطو بخطواتٍ واسعة. وربما يقابِلُ الجَذرُ العبريُّ لِـلـفِـصح (وهو "پـيـسَح": عُبور، قَـفْز، تجاوُز) الفعلَ العربيَّ: "فَـسحَ يَـفْـسَح" [خَطَا خُطُواتٍ مُتَبَاعِدَةً، أيْ: قَفَزَ].

[فصُحَ يَفصُح فَصْحًا وفَصَاحَة فهو فَصْحٌ (والجمع: فِصاحٌ) وهو فَصيح (والجمع: فُصَحاءُ) وهي فَصيحة (والجمع: فَصَائحُ). فصُح الرَّجلُ: جادت لغته وكان كلامه واضحًا. فَصُحَ اللَّبنُ: خَلُصَ ممَّا يَشُوبُهُ، أيْ أُخذَتْ رَغْوَتُهُ وبَقِيَ خَالِصُهُ.]

*Georgine AYOUB, « Un idiome harmonieux et pur : Le trésor enseveli. » (2003). Dans : *Cent titres à l'usage des bibliothécaires, libraires et amateurs : Poésie de langue arabe*, éd. Jean-Charles Depaule, pp. 29-58. Centre International de Poésie, Marseille, 2003.

سبيل المثال، اعتُبِرَ النبي محمَّد أفصحَ العرب واعتُبِرَت قريش وتميم وثقيف ومُضَرَ أفصحَ القبائل لأسباب سياسية واقتصادية فهي أقوى القبائل. قال أبو عمرو بن العلاء: "أفصح العرب عُليا هوازن وسُفلى تميم".

**لصناعة اللسان العربي الموحَّد (الّذي سُمِّيَ "العربيَّة") انطلاقاً مِن عِدَّة لُغات من لغات العَرَب، استبعدَ النحاةُ المؤسِّسون** بادئ ذي بدء **أغلبَ الظواهر اللغوية المناطقية** [المحلية أو الإقليمية] المميِّزة [التمييزية] في لُغات [أو لَهَجات] العرب (أي **استبعدوا "اللُّكْنات" المحلّية التي تُعيق توحيدَ اللِّسان وتقعيدَه**) واعتبروها لغات رديئةً مذمومة قبيحة؛ وهي لهَجات ما زالَ بعضُها مستخدَماً حتى اليوم. ومن هذه اللُّكْنات [اللُّغات أو اللَّهَجات] (بحسب *المُزهِر* للسيوطي، ج١، "النوع الحادي عشر: معرفة الرديء المذموم"، ص ٢٢١–٢٢٢):

١– الكَشكَشة [إبدال كاف المخاطَبة صوت "تْش"] (لُكْنة قبيلة أَسَد وربيعة ومُضر وتميم) (مثال: "رأيتُتْش" [="رأيتُك"])؛

٢– الكَسكَسة [قَلْب كاف المخاطَبة سيناً] (لُكْنة ربيعة ومضر) (مثال: "عَلَيتْسْ" [="عليكَ"])؛

٣– العَنعَنة [قَلب الهمزة الأوّليّة عَيناً] (لُكْنة تَميمٍ) (مثال: "عَسلَم" [="أَسْلَمَ"])، "عَنَّ" [="أَنَّ"])؛

٤– الفَحفَحة [قَلْب الحاءِ عيناً] (لُكنة هَذيل) (مثال: "عَتَّى عَلَتِ العَياة لِكُلِّ عَيٍّ" [="حَتَّى حَلَتِ الحَياةُ لِكُلِّ حَيٍّ"])؛

٥– العَجعَجة [قَلب الياء المشدَّدة جيماً] (لُكْنة قُضاعة) (مثال: "تَميمجّ" [=تَميميّ"، بالعَشِجّ [=بالعشيّ]) (وهناك ظاهرة عكسية وهي تَحَوُّل الجيم إلى ياء، في بعض الكلمات (مثل: "أويّ" [="أوج"، أي القِمَّة) و"مَسيِد" [="مَسجِد"]))؛

٦– الشَّنشَنَة [قَلْبُ كاف آخِرِ الكلمة شيناً] (لُكنة في اليمن) (مثال: "لَبَّيشْ")؛

٧– الوَكْم [كَسْر كاف المخاطَب المسبوقة بياء أو كَسرة] (لُكْنة ربيعة) (مثال: "عَلَيكِم")؛

٨– الوَهْم [كَسْر حتَّى ولو لم يكُنْ قبلَها كَسرة] (لُكنة كَلب) (مثال: "عنـهِـم")؛

٩– والوَتْـم [قلب اسين تاءً] (لُكنة في اليمن) (مثال: "١–يا قَـبَّـحَ اللّٰهُ بَـنِي السِّعْلات، * عَمْرِو بْـنِ يَـربُوعٍ شِرارِ النَّاتِ [=النَّاسِ]. ٢– لَيْسُوا أعِـفَّـاءَ ولا أكياتِ [=أكياسِ[5]]." [عَلْـباءُ بنُ أَرقَمَ])؛

١٠– الـخَرَم[6] [زيادة حرف في الكلام] (مثال: "ولا لَـلَـما بِهِمْ أبداً دواءُ." [زيادة اللام]؛ "وصالياتٍ كَـكما يُـؤْثَـفَـيْـن" [7] [زيادة الكاف])؛

١١– الاستنطاء [قلب العين الساكنة نوناً] (لُكنة هذيل وسعد بن بكر) (مثال: "أَنْـطى" [=أَعْـطَى"])؛

١٢– اللَّخلَخانية [حَذف حَرفٍ أو دمجه في الذي يليه] (لُكنة الشِّحر وعُمان) (مثال: "مَشالله" [="ما شاءَ الله"])؛

١٣– الطُّمْطُمانية[8] [إبدال "الـ" التعريف "أمْ": "أَمْـهواء" [=الـهَواء"]] (لُكنة حِمْيَر في اليمن) (مثال: "ليسَ مِنْ أَمْـبِـرِّ أَمْـصيامُ في أَمْـسَفَرِ" ["ليسَ من الْـبِرِّ الـصِّيامُ في الـسَّفَرِ"] (حديث نبويّ أخرجَه الطبراني والبيهقي)؛ وفي العامية السورية: اِمـبارح/اِمـبارحَة [الـبارحة])؛

[5] "أَكياسٌ" (و"كَـيْسٌ"): لَبِقونَ، لَطيفون، مُؤدَّبون، ظُرَفاء، أذكياء. وهو **جمعُ "أكْيَس"** [المؤنَّث: "كُوسَى" و"كِيْسَى"، وجَمعُ المُؤنَّث: "كُوسَيَاتٌ" و"كُوسَى"]: **اسمُ تفضيلٍ من "كاسَ يَكِيسُ كِسْ كَيْسًا وكياسةً"** بمعنى: "ظَرُفَ" و"فَطُنَ" فهو "كَيِّسٌ" و"أكْيَسُ". و"كَاسَ" إخْوَتَهُ: غَلَبَهُمْ بالكيَاسَة. و"كاسَ" الشّخصُ: "عقَلَ" (ضدّ "حَمُقَ"). "**الْـكَـيِّـسُ** مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لمَا بَعْدَ المَوْتِ." (حديث).

[6] بينما يُشير "الخَرَم" في عَروض الشِّعرِ إلى نقص. "الـخَرَم" هو إسقاطُ المتحرِّك الأوَّل من الجزء الأوَّل من البيت. أمّا "الخزم" (بالزاي) فهو من علل الزيادة، وهو زيادة تلحق أوَّل صدْر البيت أو أوّل العجُز، وتتمثَّل في زيادة حرْف أو حرفين أو ثلاثة، وأقْصى زيادة أربعة أحرف.

[7] هذا الشطر لرؤبة بن العجَّاج أو لـخطام المجاشعي. صاليات: صفة الأثافيّ [أحجار الـمَوقد] أو صفة للنساء الـمُوقِدات للنار. يُؤْثَفَينَ: يُثْفَينَ، يُـوضَعن كالأثافي للقدر.

[8] الطَّمْطَمَة في اللغة: العُجْمة و(الطِمْطِم) والطِّمْطمي والطُّماطِم والطُّمْطُماني الأعجم الذي لا يفصح. ويقال في لسانه طُمطُمانية أي عُجْـمة.

١٤– العجرفية [ الثِّقَل في الكلام ولعلها طلب الغريب من الوحشي من الكلام ] ( لُكْنَتَا قَيسٍ وضَبَّةَ ) ( لَمْ يُقدِّم النُّحاةُ أمثلةً عليها )؛

١٥– التَّلتَلة [ كسر حرف المضارَعة في أول الفعل ] ( لُكْنة بَهْراء ) ( مثال : "يِعرَف" )؛

١٦– لفظُ الكاف جيمًا ( "الجَعبة" "الكَعبة" ] ).

هذه اللُّغاتُ [ اللَّهَجَات أو اللُّكْنات ] استُبعِدَت من اللغة الموحَّدة المِعيارية الرسمية العابرة للَّهَجات لأنها لَهَجات مَحَلِّية مَناطقية قَبَلية تعدُّدية تُؤكّد الانتماءاتِ المتعدّدةَ والمحدودةَ غيرَ المحمودةِ للمناطق، وبالتالي تُخالِفُ رُوحَ توحيدِ اللغةِ وتَبتعِدُ عن لُغة النُّخبة ولغةِ الحاكِمِ. والّذي يتكلّم بلهجته المحلّية في الفضاء العام أو أمام الحاكِم يُصبِح مدعاةً للسُّخرية ( كما أكّدَت جورجين أيّوب في مقالها *« Le tout de la langue ou le malheur de l'infini : Une étude de la Durrat al-ghawwaṣṣ de Ḥarīrī »* [ "كُلّيّة اللُّغة أو مُصيبة المُطْلَق: دراسة في « دُرَّة الغوَّاص » للحريري" ] ). لقد ضَحِكَ عبدُ المَلك بنُ مَروان كثيراً على لَيلَى الأَخْيَلِيَّةَ عندما قالَتْ للشَّعبيّ بلَهْجة قبيلتها [ التَّلْتَلة، كَسْر حُروف المُضارَعة ]: "وَيْحَكَ أَمَا نِكْتَنِيْ؟!" [ بكَسْرِ نُونِ المُضارِعِ، بَدلاً مِنْ « نَكْتَنِيْ » [ أيْ: نَتَكَنَّى ]]، وَرَدَّ علَيها الشَّعبيُّ ساخِراً مُحَمِّلاً الفعلَ مَعنى: "نَكَحْتَني": "لَوْ فَعَلْتُ لاغْتَسَلْتُ"؛ فخَجِلَتْ هي من إظهارها لانتمائها اللغويّ القَبَلِيّ.[9]

---

[9] **تَلْتَلةُ بَهْراءَ: طُرفةُ لَيلى الأَخْيَلِيَّةِ وَالشَّعبيِّ عِنْدَ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَروانَ**: رَوَى الحَريريُّ ( المُتَوَفَّى سَنَةَ ١١٢٢ م. ) في *دُرَّةُ الغَوَّاص*، وَالبَغْداديُّ ( المُتَوَفَّى سَنَةَ ١٦٨٢ م. ) في *خِزانة الأَدَب*: « أَمَّا تَلْتَلةُ بَهْراءَ فَيَكْسِرونَ حُرُوفَ المُضارَعة، فَيَقُولُونَ: "أَنْتَ تِعْلَمُ" [ بَدلاً مِنْ: "أَنْتَ تَعْلَمُ" ]. وَحَدَّثَني أَحَدُ شُيوخي أَنَّ لَيلَى الأَخْيَلِيَّةَ مِمَّنْ كانَتْ تَتَكَلَّمُ بِهَذِهِ اللُّغة، وَأَنَّها اسْتَأْذَنَتْ ذاتَ يَومٍ عَلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَروانَ وَبِحَضْرَتِه الشَّعبيُّ [ عامِرُ بْنُ شَراحِيلَ ]، فقالَ لَهُ: "أَتَأْذَنُ لِيْ يا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فِيْ أَنْ أُضْحِكَكَ مِنْها؟" قالَ: "افْعَلْ!" فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِها الْمَجْلِسُ قالَ لَها الشَّعْبيُّ: "يا لَيْلَى ما بالُ قومِكِ لا يَكْتَنُونَ؟" [ أَيْ لا يَحملونَ "كُنْيَةً"، لا يَتَسَمَّونَ بِـ"أَبي فُلانٍ" ] فقالَتْ لَهُ: "وَيْحَكَ أَمَا نِكْتَنِيْ؟!" [ بِكَسْرِ نُونِ المُضارِعِ، بَدلاً مِنْ « نَكْتَنِيْ » [ نَتَكَنَّى ]] فقالَ: "لا وَاللهِ، وَلَوْ فَعَلْتُ لاغْتَسَلْتُ". فَخَجِلَتْ عِنْدَ ذَلِكَ وَاسْتَغْرَبَ عَبْدُ المَلِكِ فِي الضَّحِكِ. » ( *دُرَّةُ الغَوَّاص فِي أَوْهامِ الْخَوَاصِّ*، أبو مُحَمَّد القاسم الحَريريّ. *خِزانةُ الأَدَب وَلُبُّ لُباب لِسان العَرَب*، عَبدُ القادِرِ بْنُ عُمَرَ البَغداديُّ ).

**كما اعتُـمِدَ لوضعِ "العربية"** (تقعيد العربية كَلِسانٍ معياري [codification, koinéisation]) **على المَصادِرِ التالية: القُرآن والأدب (الشعر الجاهلي وبعض كلام العرب).**

**(١)- القُرآن:** يبدو أنَّ القرآن كان الإجراءَ السياسي واللغوي الرسمي الأهم وربما الأول في سبيل صناعة لغة معيارية وسيطة بين القبائل، أي أنه كان الخطوة الرسمية المكتوبة لتوحيد اللهَجات. (القرآن لِسانٌ عربي، أيْ وُضِعَ بِعِدَّةِ لَهَجات عربية. كان القُرآنُ المَرجعَ الأساسيّ لتقعيد اللِّسان المعياري. إذ اعتبر واضعو "العربية" [اللسان العربي المعياري] أنَّ كلَّ ما وَرَدَ في القرآن فصيح وإن خالفَ القياسُ (كالفعل "اسْتَحْوَذَ"[10]). (*المُزهِر*، ج١، ص ١٨٨). والأرجح أنَّ النص القرآني قد شُغِلَ عليه ومَرَّ بِعِدَّة مراحلَ وخضعَ لتعديلات وغَربلاتٍ وانتقاءات. فقدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قولُه: "لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ قَدْ أَخَذْتُ القُرْآنَ كُلَّهُ وما يُدْرِيهِ ما كُلَّهُ؟ قَدْ ذَهَبَ مِنْهُ قُرْآنٌ كَثِيرٌ، ولكِنْ لِيَقُلْ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهُ مَا ظَهَرَ مِنْهُ." . ويرى المُستعرِبُ الألماني كارل فولَّرس [Karl Vollers] (١٨٥٧ – ١٩٠٩ م) أن النص الأصلي للقرآن قد كُتِبَ بإحدى اللهجات الشعبية التي كانت سائدة في الحجاز، والتي لا يوجد فيها كما لا يوجد في غيرها تلك النهايات المُسَمَّاة بـ"الإعراب"، وأنه انتقلَ إلى هذا النص فيما بعد؛ ويرى فولَّرس أن العربية الفصحى التي رواها لنا النحويون العرب مصنوعةً ولَمْ تَكُنْ حَيَّةً في مكَّةَ على عهد النبي محمد. (نقلاً عن رمضان عبد التوَّاب، *فصول في فقه العربية*، ١٩٩٩، ص ٣٧٧ – ٣٧٨، وصبحي الصالح، *دراسات في فقه اللغة*، ٢٠٠٩، ص ١٢٢). يُشير السيوطي (في *الإتقان*، ص ٢٨٦) إلى جهود الانتقاء ومراعاة عِدَّة لهَجات؛ فيقول إنَّ القرآن نَزَلَ على سَبعِ لُغاتٍ [=لَهَجات] منها خمسٌ بلغة العَجُز من هوازِن [عُليا هوازن] (سَعد بن بكر، جُشَم بن بكر، نصر بن معاوية، ثقيف)، وإنَّ كَتَبة المَصاحفِ قد اختيروا من أَفصح العرب (مُضَر وقُرَيش وثَقيف) [قال ابن مسعود: "يُستَحَبُّ أنْ يكونَ الذين يكتبون المصاحفَ من مُضَر"؛ وقال عُمَرُ: "لا يُـمْـلِـيَـنَّ في مصاحفِنا إلا غِلمانُ قُريشٍ وثَقيف"]، وإنَّ في القُرآنِ من اللُّغاتِ خَمسين لُغةً (لَـهْجةً ولُغةً [لِساناً]). وقد استخدَمَ القُرآنُ ضِمن منظورٍ توحيديّ عِدَّة لهَجات للإيفاء

[10] بمعنى "غَلَبَ"، في الآية: " اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ" (السورة ٥٨ [المجادَلة]، الآية ١٩)، والقياس أن يُقالَ: "اسْتَحاذَ" على غِرار: "اِستَعاد".

بالمعنى ولِغَرَض السَّجْع أيضاً (مثال: "والرَّيحانُ" [سورة الرحمن، ١٢][11] [والرَّيحان هو الرِّزق بلغة حِمْيَر أو همذان]). فقد أشار السيوطي (*المُزهِر*، "النوع السابع عشر: معرفة

---

[11] من الواضح في الآيتَين ١٢ و١٣ من سورة الرَّحمن أنَّ كلمةَ «الرَّيْحَان» [=الرِّزق] قد استُخدِمَت هنا كفاصلة [سجع، قافية في القُرآن] لكي تتماشى صوتياً مع فواصل السورة:

[١٢] «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانِ.

[١٣] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.»

وهذا رأي شخصي لكاتب المقال تدعمه شواهدُ مذكورة أدناه. (أمَّا كلمةُ «رَيحان» (بمعنى: "الرِّزق") في الآية: «فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» [الواقعة، ٨٩] فلا يبدو أنها استُخدِمَت لغرض السجع بل على الأرجح لغرض موسيقيّ وجِناسيّ كي تتناسَب صوتياً مع الكلمة السابقة «رَوْحٌ».)

يشير السيوطي (في *الإتقان*، النوع ٣٧ "فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز") إلى أنَّ عِبارة "وزوَّجناهُم بِحُورٍ عِيْنٍ" [الدُّخان، ٥٤] (بدلاً من: "وزوَّجناهُم حُوراً عِيْناً") هي لُغة يمانية غير حجازية. لكنْ لماذا اختار القرآنُ في هذا الموضع تحديداً هذه اللُّغة التي تستخدم حرف الجر "الباء" مع الفعل "زَوَّجناهم"؟ لِنُلْقِ نظرةً على فواصل الآيات قبلَ هذه الآية وبعدَها:

[٥٠] إنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ [٥١] إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [٥٢] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [٥٣] يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ [٥٤] كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ [٥٥] يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ.

نلاحظ أنه لو استخدمَ اللغة الحِجازية ("وزوَّجناهُم حُوراً عِيْناً") لَفَقَدَ الفاصلة [السجع] وأضاع شيئاً من الموسيقا. فاختيار حرف الجر كان لسبب موسيقي بحت.

لنقارِنْ أيضاً بين هاتَين الآيتَين لنرى لماذا استخدمَ الفعل "كان":

"إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ." (الحج، ١٧)

"إنَّ اللهَ كانَ على كُلِّ شيءٍ شهيداً". (الأحزاب، ٥٥)

إن استخدامه للفعل "كانَ" يبدو فقط للحصول على فاصلة منصوبة تنسجم مع بقية فواصل السورة:

[٥٤] إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا.

[٥٥] لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا.

[٥٦] إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

[٥٧] إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا.

وهذا يعني أن السجع [الأثر الموسيقي] هو السبب وراء اختيار الفعل "كان". فالفواصل هدفُها تجميل النص، مما قد يُخفي بعضَ عيوبه، وهو ما أشار إليه الباحث الفرنسي وعالِم الإسلاميات كلود جيليو [Claude Gilliot] (وُلِدَ عام ١٩٤٠ م):

« Seuls le style incantatoire et les rimes peuvent faire oublier ces négligences ou ces fautes de langue ! ».

تداخُل اللغات" ) أنَّ العربي يمكنه أن يستخدم للمعنى الواحد عدة كلمات من لهجات غير لهجته لغرض موسيقي (الشعر) أو للإيفاء بالمعنى. فلِلقائلِ الخِيارُ في القول: "**رَغوةُ**" اللَّبنِ، و"**رُغوتُـ**"ــه، و"**رِغاوَتُـ**"ــه، وله أن يختارَ بين هذه اللَّـهَجات: "**مِن عَلِ**"، و"**مِن عَلُ**"، و"**مِن عَلا**"، و"**مِن عُـلْو**"، و"**مِن عِـلْو**"، و"**مِن عَـلْوُ**"، و"**مِن عَالٍ**"، و"**مِن مُعالٍ**".

وبالتَّالي فإنَّ الفكرة السائدة القائلة بأنَّ القُرآن نزل بلُغة قُريشٍ غيرُ دقيقة. وإذا وافقَ القرآنُ لَهْجةَ قُريش بصورة أكبر فذلك لأنَّ هذه اللهْجة قد أصبَحَت هجينةً مُركَّبةً من عدَّة لهَجات. قال الفارابي (في *الألفاظ والحروف*): "كانت قُريشٌ أَجوَدَ العربِ انتقاداً [انتقاءً] للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبيَنَها إبانةً عما في النفس". وبحسب ابن عبد البر [ت. ١٠٧١] (في *التمهيد*): "نَزَلَ بلغة قُريش معناه عندي: الأغلب؛ لأنَّ غَيرَ لُغة قُرَيشٍ موجودة في جميع القراءات، من تحقيق الهمزة ونحوها، وقُرَيش لا تَهمُز". إذاً، كانت لُغة [لَهْجة] قُرَيش لغةً هجينةً، لأنها كانت تستقبل الحُجَّاج فـ***تختار*** أحسنَ

---

"لا شيءَ غير الأُسلوب التَّعويذي [التعزيمي، سَجع الكُهَّان] والقوافي هو ما يمكنه أنْ يَجعلَ المَرءَ يَنسى هذه النواقصَ أو تلك الأخطاءَ في اللغة!"

(Claude Gilliot, « André Miquel, *L'Événement* », *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 68 (1993) n° 1, p. 295.)

(محمد علي عبد الجليل، *Approche polysémique et traductologique du Coran. La sourate XXII (Al-Ḥajj [le pèlerinage]) comme modèle.* [*مقارَبة بوليسيمية وترجماتية للقرآن. سورة الحج نموذجاً*]، أطروحة دكتوراه، جامعة آيكس–مرسيليا، ٢٠١٧. تحت إشراف: ريشار جاكمون [Richard Jacquemond]، تاريخ المناقشة: ٢٣/١١/٢٠١٧، ص ١١٢ – ١١٣).

أطروحة محمد علي عبد الجليل ومعلومات عنها (بالفرنسية) متوفِّرة على الروابط التالية:

1. Site « scanR, moteur de la recherche et de l'innovation » : https://scanr.enseignementsup-recherche.gouv.fr/publication/these2017AIXM0348 ;
2. Site du Système universitaire de documentation (SUDOC) [النظام الجامعي للتوثيق] : http://www.sudoc.abes.fr/cbs/xslt/DB=2.1//SRCH?IKT=12&TRM=233031707&COOKIE=U10178,Klecteurweb,D2.1,Ea2c700f3-0,I250,B341720009+,SY,QDEF,A%5C9008+1,,J,H2-26,,29,,34,,39,,44,,49-50,,53-78,,80-87,NLECTEUR+PSI,R79.87.169.183,FN ;
3. Site de l'islamologue Mehdi Azaiez de l'Université de Lorraine (soutenance de thèse) :
4. https://www.mehdi-azaiez.org/Defense-of-Mohamed-Ali-ABDEL-JALIL-Approche-polysemique-et-traductologique-du .

(راجع أيضاً: "أخطاء القرآن اللغوية والإنشائية: قراءة تفكيكية"، محمد علي عبد الجليل، معابر، حزيران، ٢٠١٤ (http://maaber.50megs.com/issue_june14/spotlights1_a.htm ؛ الحوار المتمدن، العدد: ٤٤٤٧، ٨/٥/٢٠١٤، (http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=413887&r=0).

لغاتِهم، ولذلك أصبَحَتْ لُغة مُهيمنةً، وبالتالي ساهَمَتْ أكبرَ مساهمةٍ في صناعة لُغة مِعيارية (لغة مشترَكة، لغة وسيطة، لغة تعامُل، لغة شائعة، لغة تواصُل، lingua franca، langue véhiculaire، koinè، langue-toit ).

فمِن اللهجات غير القُرشية في القرآن، نَجِدُ **الهَمْزَ** (وهي لَهجة تَميم، لأَنَّ تَميماً أَهلُ نَبْرٍ [هَمْز]، بينما قُريش أهلُ لِيْنٍ وتسهيل للهمزة) و**إدغامَ المَجزومِ** (لَهجة تَميم) (مثال: "ومَن **يُشاقِّ** اللّهَ" [الحشر، ٤]؛ "مَن **يَرْتَدَّ** منكُمْ عَن دِينِه" [المائدة، ٥٤]). ولكنْ كَثُرَ فكّ الإدغام (لغة الحجاز) في القرآن: "و**لْيُمْلِلِ** الَّذي عَلَيْه الحَقُّ" [البقرة، ٢٨٢]؛ "فَاتَّبِعُونِي **يُحْبِبْكُمُ** اللَّهُ" [آل عمران، ٣١]؛ "إن تَصْبِرُواْ [...] **يُمْدِدْكُمْ** رَبُّكُم" [آل عمران، ١٢٥]؛ "**اشْدُدْ** به أَزْرِي" [طه، ٣١]؛ "وَمَن **يَحْلِلْ** عَلَيْه غَضَبِي" [طه، ٨١]). كما نجِدُ كثيراً من المُفرَداتِ مِن لَهَجاتٍ غيرِ قُرَشية (هوازِن وكِنانة وهَذيل وكِنْدة وجُرهُم وغيرِهم).

الهَمز والإدغام هُما لُغة تَميم، وهي لُغة شَرقية نَجدية ولُغة الشِّعر (لأنَّ تَميماً سَكَنَتْ شمالَ نَجْدٍ في شرق شبهِ الجزيرة العربية)؛ بينما لُغة قُريش هي لُغة غربية حِجازية (لأن قُرَيشاً سَكَنَتْ غَربَ الجزيرة العربية). والقرآنُ وافقَ لُغةَ تَميم في هاتين الناحيتَين. ولذلك قال كارل فولّرس [Karl Vollers] إن القرآن كُتِب أولاً بلغة قُرَيش [الحِجازية (الغربية) التي تُخَفِّف الهَمزةَ] ثُمَّ أُعيدَت صياغتُه بلغة الشِّعر [لهجة تَميم الشرقية التي تُثبِت الهمزةَ]. ولكنَّ عالِم اللسانيات العربية پيير لارشيه [Pierre Larcher] يشير إلى أنَّ عربية القرآن ليست العربية الكلاسيكية [المعيارية المَدرسية]. (پيير لارشيه [Pierre Larcher]، « Qu'est-ce que l'arabe du Coran ? Réflexions d'un linguiste » [ "ما هي عربية القرآن. تأمُّلات لُغوي" ]).

**(٢)- الأدب: الشِّعر الجاهليّ وبعض كَلام العَرَب**: بحسب السيوطي (في المُزهِر)، فقد أُخِذَ اللسانُ العربي [مُعظَمُه] عن لغاتٍ: قيسٍ وتميمٍ وأسدٍ. ثم أُخِذَ بعضٌ منه من هذيل وبعض الكنانيين والطائيين. ولم يؤخَذْ عن حَضَريّ ولا عن سكّان البراري المجاورين للأمم الأخرى (كلَخم وجُذام [جيران مصر والقِبط] وقُضاعة وغسّان وإياد [جيران الشام والنصارى قُرّاء

العبرية] وتَغلب واليمن [جيران اليونان] وعبد القيس وأزدْعُمان [البحرين لاختلاطهم بالهند والفُرس] وأهل اليمن [لاختلاطهم بالهند والحبشة])، كما أن للشعر دور كبير إلى جانب القرآن في تقريب لُغات العرب والتحضير للغة وسيطة إذْ أن العربي كان يستخدم كلمات من قبيلة أخرى لحاجته في الشعر.

فـ"العَرَبِيَّة" (مَصْدَر صِناعي [12]) هي لِسان معياري رسمي وَضَعَهُ النُّحاةُ (وهُمْ "أَهْلُ *العربيَّة*") ابتداءً من المشترك من لغات العرب (اعتماداً على منتجات لغوية مشتركة هي القرآن والأدب [من شِعر وأقوال سائرة لدى مختلف القبائل العربية])، ليكون مفهوماً أكثر من كل الجماعات التي تشترك فيما بينها بأغلب الظواهر النحوية والمفرداتية ونُعِتَت هذه "العربية" بـ"الفُصحى" (اسم تفضيل، مؤنَّث "أَفْصَح" من الفَصاحة، أي: الوضوح) أي التي بلغَت أعلى درجة من الوضوح والمفهومية بين أكبر عدد ممكن من المتكلمين في مختلف المناطق.

وقد أشار النُّحاةُ إلى كلام العرب بضمير الغائب، بحسب جورجين أيُّوب ("قالت العربُ"، "لُغتهم"، إلخ.). وضميرُ الغائبِ هو ضميرٌ لاشخصيّ بحسب إيميل بينفينيست (١٩٠٢–١٩٧٦) (Émile Benveniste). لُغةُ العَربِ هي كلامُ الغائب، لغة القانون، الكلامُ المُجَرَّد، المُتعالي (transcendante)، المُقَعَّدُ المُدوَّن (codifiée)، اللازمني. بينما اللغة الْحَيَّة يُشار إليها بالمُتكلِّم (énonciateur) والمُخاطَب (destinataire).

[12] المَصدَر الصِّناعي: مَصدَر قياسي يُشْتَقُّ بإضافة ياء مشدَّدة وهاء تأنيث في آخِرِه ليُصبِحَ اسماً يَدُلُّ عَلى معنًى مجرَّد. أمثلة: "إنسانيّة"، "عَلْمانيَّة"، "اشتراكيَّة"، "جَبْريَّة". وقد وَرَدَ مُصطلَح "المَصْدَر الصِّناعي" قَليلاً في مصنّفات اللُّغويين القُدامى تحت اسم "مَصْدَر". فقال الخليل الفراهيدي عن "اللصوصيّة" بأنّها مصدر "اللصّ". وذكره سِيبوَيه: "الجَبريَّة مَصدر الجَبر". وسمّاه كلٌّ من الفَرَّاء والأزهري وابن دُرُستُوَيه وابن قُتيبة بِـ"المَصدر". وأوَّل من أطلق عليه لفظ "المَصدر الصناعي" هو اللُّغَويّ المصري الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الحملاويّ (١٨٥٦ – ١٩٢٨). وقد تحدّث الدكتور شوقي ضيف عن المصدر الصناعي في اللغة العربيّة في مجال تيسير النحو، وقال بأنّه يُكثر استخدامه في المصطلحات العلمية. (موقع سطور، https://sotor.com/المصدر_الصناعي_في_اللغة_العربية#cite_note-utGDMqqrnF-3)

**وكخُطوة أخيرة في تقعيد اللسان العربي المعياري، وَضَعَ النُّحاةَ حركاتِ الإِعراب [التشكيلَ] كزينةٍ وتحسين لسهولة وصل الكلمات.**

ففي مقابل فرضية التطور الخطي للعربية من الكمال إلى الفساد، ومن اللغة الـمُعرَبَة إلى فُقدان حركاتِ الإِعراب، هناك باحثون يَرَونَ أنَّ حركاتِ الإِعراب من وضع النحاة وليست أصيلةً في اللغة العربية ولا هي من طبيعة اللغة. إذْ أنَّهم يَرَونَ أنَّ العربية لم تكن تمتلِك نظاماً إعرابياً ولا حركاتٍ منذ ظهور الإسلام بل وحتّى قبلَ الإسلام. هذا ما ذَهبَ إليه كثير من الباحثين، مِثل: الفنلندي جورج أوغست ڤالين [Georg August Wallin] (١٨١١ – ١٨٥٢)، والألماني "كارل فولَّرس" [Karl Vollers] (١٨٥٧ – ١٩٠٩ م)، ورائد الدراسات اللغوية الباحث المصري "إبراهيم أنيس" (١٩٠٦ – ١٩٧٧ م)، والباحث السويدي "يان ريتسو" [Jan Retsö] (وُلِد عام ١٩٤٧)، وأستاذ اللسانيات العربية في جامعة بايرويت في ألمانيا "جوناثان أوينز" [Jonathan Owens]، والباحث الفرنسي أستاذ اللسانيات العربية في جامعة آيكس–مرسيليا "پـيير لارشيه" [Pierre Larcher] (وُلِدَ عام ١٩٤٨)، والإيطالي "جوليانو لانسيوني" [Giuliano Lancioni] (وُلِدَ عام ١٩٦٧)، والفرنسي "مانويل سارتوري" [Manuel Sartori] (جامعة آيكس–مرسيليا)، وغيرِهم. ومن الباحثين من رأى أن اللغة الأم للعربية كانت تمتلك حركاتٍ إعرابيةً ولكنْ فقدَتْها عند ظهور الإسلام، ومنهم أحمد الجلاَّد [Ahmad Al-Jallad] ومحمد الشرقاوي [Muhammad Al-Sharkawi] (جامعة وَين ستَيت في ديترويت ميشيجان بالولايات المتحدة).

إنَّ أوّل من قال بهذا الرأي من القدماء هو قُطرُب (المتوفَّى سنة ٨٢١ م) (أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد البصري، أحد تلاميذ سيبويه) حيث رأى أنَّ الحركاتِ وُضِعَت فقط لوصل الكلام وسلاسة النطق وعدم التقاء ساكنَينِ والفصل بين الصوامت ولا علاقة لها بـ"**الإعراب**" الذي يعني أصلاً: **إيضاح الكلام وتبيينه** فقط. لقد شَرَح مُعجَمُ *لسان العرب* معنى "أعرَبَ" بمعنى "أَوضَحَ": «ورُوِيَ عن النَّبيّ [...]: "الثَّيِّبُ **تُعْرِبُ** عن نفسِها"، أيْ **تُفْصِحُ**. [...] وقال الأزهري: "**الإعرابُ** و**التَّعريبُ** معناهما واحد، وهو **الإبانة**"؛ [...] وإنَّما سُمِّيَ الإعرابُ إعراباً لتبيينهِ وإيضاحهِ؛ [...] وفي حديث السَّقيفةِ: **أَعربُهم** أحساباً أيْ **أَبْيَنُهم** و**أَوضَحُهم**.

ويُقال: "**أَعرِبْ** عَمَّا في ضَميرِكَ" أيْ **أَبِـنْ**.» وقد نُسِبَ إلى عُمَرَ قولُه: "تَعَلَّموا **إعراب** القُرآنِ كما تتعلَّمون حِفظَه" (*إيضاح الوقف والابتداء*، الأنباري، دمشق، ١٩٧١، ص ٣٤). والمقصود هنا نُطْقُه بوضوح، أيْ: التحقق من مخارج حروفه، وليس المقصودُ حركاتِ الإعراب التي لم تكن قد وُضِعَت بعدُ.

وقد قال قُطرُب إنّ الكلام لَم يُعرَبْ للدلالة على المعاني والفَرق بين بعضها بعضاً، لأننا نجد في كلام العرب أسماءً متَّفقة في الإعراب مختلفة المعاني وأسماء مختلفة في الإعراب متفقة في المعاني. فلو كان الإعراب قد دخلَ الكلام للفَرق بين المعاني لوجبَ أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه ولا يزول إلا بزواله. وإنما أَعربَت العربُ كلامَها، بحسب قُطرب، لأنَّ الاسم في حال الوقوف يلزمه السكونُ للوقوف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، ولكانوا يبطئون عند الإدراج، فلمَّا وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام. وعندما سُئل قُطرُب لماذا لم يلزم العرب حركة واحدة لأنها مجزئة لهم إذا كان الغرض هو حركة تعقب سكوناً؟ قال: لو فعلوا ذلك لضيّقوا على أنفسهم فأرادوا الاتِّساعَ في الحركات وألاَّ يُضَيِّقوا على المتكلِّم. (الزَّجَّاجي، *الإيضاح في علل النحو*، ص ٧٠)

وقد أشار الزّجاجيّ (المتوفَّى سنة ٩٥٢ م) إلى أنّ حركاتِ الإعراب من اتّفاق النحاة، حيث قال: "اتَّفقَ النُّحاةُ على أنَّ حركات الإعراب تُنبئ عن المعاني وتدل عليها ليتوسعوا في كلامهم ويقدّموا الفاعل إن أرادوا أو المفعول وتكون الحركات دالة عليه".

ويُفهَم من كلام الزَّجّاجيّ أن حركات الإعراب من اتّفاق النحاة وصُنعهم: "اتَّفقَ النُّحاةُ على أنَّ حركات الإعراب تُنبئ عن المعاني وتدل عليها ليتوسعوا في كلامهم ويقدّموا الفاعل إن أرادوا أو المفعول وتكون الحركات دالة عليه".

وحتّى سيبويه (المتوفَّى سنة ٧٩٦ م، وهو تِلميذ الخليل بن أحمد الفراهيدي [ت. ٧٨٦ م] الذي كان تلميذاً لأبي عَمروٍ بن العَلاء مؤسس "العربية" [ت. ٧٧٤ م]) أشار إلى أن الحركات

زوائد لوصل الكلمات ببعضها حيث قال في *الكتاب*: "وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد يَلْحَقْنَ الحَرفَ لِيُوصَلَ إلى التكلُّم به".

وليس هدفُ الحركاتِ الوصلَ فقطْ، بل هي زينة للكلام أيضاً، كما تؤكد الملاحظة المنسوبة لمالك بن أنس: "الإعراب حِلْيُ اللِّسانِ فلا تَمْنَعوا أَلسِنَتَكم مِن حِلْيِها". (الزُّبَيديّ، *طبقات النحويين واللغويين*، دار المعارف، ١٩٨٤، ص ١٣.)

وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس (في كتابه *من أسرار العربية*، "الفصل الثالث: قصة الإعراب"، ص ١٨٣ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦) إلى أنَّ ظاهرة الإعراب [حركات أواخِر الكلمات] قد حِيكَت وتَمَّ نَسجُها حياكةً مُحكَمةً في أواخِرِ القرنِ الأول الهجري أو أوائل الثاني، على يد قومٍ من صُنَّاعِ الكلامِ نشأوا وعاشوا مُعظَمَ حياتِهم في البيئة العراقية. وكان لصُنّاع الكلام [النحويين] سلطان عظيم فرفضوا الاستشهاد بأحاديثَ نبويةٍ بحُجَّة أن رُواتَها يَلْحَنون [يُخْطِؤون في الإعراب] ورفضوا قراءاتٍ قرآنيةً قويةَ السَّنَدِ لأنها لا تنسجم مع قواعدهم الإعرابية واعتبروها قراءات شاذَّة. وفرضوا قواعدَهم على قُرَّاء القرآن وعلى فحول الشعراء. حتى جاء ابن مَضاء القُرطُبي الأندلسي (١١١٦ – ١١٩٦) فهاجم النحاةَ في كتابه بعنوان: *الرَّدُّ على النُّحاةِ* (تحقيق: شوقي ضيف، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧)، ودعا إلى إلغاء نظرية العامل التي هي أساس الإعراب [مثال: عامل الرفع في الفعل المضارع هو تَجَرُّدُه من الناصب والجازم]. ويرى إبراهيم أنيس (ص ٢٠٢) أن المستشرقين ربما ظنوا أن حركات الإعراب العربية هي من بقايا اللغات الساميَّة فراحوا يبحثون عن جذور الإعراب في اللغات القديمة. ولكنَّ الحقيقة هي أن النحاة ابتكروا قواعدَ الإعراب وفرضوه. وقدَّم أنيس الأدلَّةَ التالية:

١– الوقف على ساكن يدلّ على أنَّ حركاتِ الإعراب للوصل بين الكلمات فقط ولِمَنع التقاء ساكنَينِ ولتحقيق طلاقة في النطق كما أشار قُطْرُب منذ القرن التاسع الميلادي. فإذا وقفنا على كلمة فلا حاجةَ لتحريكِ آخرِها، مما يعني أنَّ الحركةَ زائدةٌ وَصْلِيَّة وليست أَصيلةً ذاتية. إننا

نُحَرِّكُ آخرَ الكلمةِ فقط دَرج الكلام. وقد تَدَخَّلَ عاملان في تحديد الحركة للتخلص من التقاء الساكنين، هما: أيثار بعض الحروف لحركة معينة (كإيثار حروف الحلق للفتحة مثلاً)، والميل إلى تجانس الحركات المتجاورة. كما أنَّ تحريك أواخر الكلمات ضروري موسيقياً في الشِّعر. وقد يُضطَرُّ الشاعرِ إلى تسكين كلمةٍ مُحرَّكة لضرورة موسيقية، كقوله:

"–وأشربُ الماءَ ما بي **نَحوَهُ**ُو عَطَشٌ * إلاَّ لأَنَّ **عُيُونَهْ** سالَ واديها."

[ "**نَحوَهُ**ُو" بإشباعِ الهاء و"**عُيُونَهْ**" بإسكانِها]. (الشاهد من *المُزهِر*، ج١، ص ٢٦٢.)

٢– ليس للحركة الإعرابية مدلول وليست جزءاً من بنية الكلمة كما ظَنَّ ابن مَضاء، فلا تَدُلُّ الحركاتُ الإعرابية على فاعلية أو مفعولية أو اضافة أو غير ذلك. فمثلاً: حركة تنوين الجَرِّ (ـٍ) تشير إلى الجر والنصب والرفع: فكلمةُ "مُعَلِّمٍ" مجرورة بالكسرة، بينما "مُعلّماتٍ" منصوبة بالكسرة، و"قاضٍ" مرفوعة ولكنَّ آخرَها كَسرة. وإذا كان التنوين علامةُ التنكير فما سَبَبُ تنوينِ الاسم العَلَمِ وهو مَعرِفة؟ فالفاعل والمفعول يُعرَفانِ بمكانهما من الجملة لا بحركة آخرِهما. أيْ أنَّ مكانَهما ثابت في الجملة إلاَّ في بعض السياقات الخاصة (كالحَصر وطول الفاعل أو اشتماله على ضمير يعود على المفعول). وفي الشِّعر والقرآن يمكن تأخير الفاعل لضرورة القافية الشِّعرية أو الفاصلة القرآنية.

٣– سَمِعَ النُّحاةُ الأُوَلُ حركاتِ أواخرِ الكلمات (من ضَمٍّ حيناً وكَسْرٍ حيناً وفَتْحٍ في كثيرٍ من الأحيان) فخُيِّلَ إليهم أنَّ وراءها سِرّاً يرتبط بالمعاني. ففَسَّروها على أنها علاماتٌ على الفاعلية والمفعولية وغيرهما، في حين أنها لا تعدو أنْ تَكونَ حركاتِ وَصلٍ بين الكلمات. وحين ظَنُّوا أنها حركاتٌ إعرابية استخدَموها في أواخر الكلمات التي لا داعي لتحريكها حَتَّى تَطَّرِد قواعدُهم، فقالوا مثلا: "الرَّجُلُ قائِمٌ" (بِضَمِّ اللام من "الرجل" وضمّ الميم من "قائم")، وكان يكفي أن يقال: "الرَّجُلْ قائِمْ" (بتسكين اللام والميم إذْ لا ضرورة لتحريكهما)، دون أن يُخِلَّ التسكينُ بالفصاحة (الوضوح).

٤- أما المعرب بالحروف (كالأسماء الخمسة والمُثنَّى وجمع المذكَّر السالم)، فكانت صِيَغُه موزَّعةً بين القبائل بحيث أن كل قبيلة كانت تلتزم صيغة محددة. ولكن النحاة جمعوا كل هذه الصيغ، وخصُّوا كلَّ صيغة منها بحالة إعرابية معينة. (إبراهيم أنيس، *مِن أسرار العربية*، ص ٢٥٤ وما بعدها).

فإبراهيم أنيس يَرى أنَّ النُّحاة هُم مَن صَنعوا حركاتِ الإعراب، بينما يَنسِبُها قُطرُبٌ إلى العَرَبِ لغرض صوتي. ويبدو أنَّ الرأيَينِ صحيحانِ. فالحركاتُ كانت موجودةً متفرِّقةً بين لُغات العرب، والنُّحاة استثمروها وقَعَّدوها وأَصَّلُوها ليجعلوا من العربية الموحَّدة لِساناً «كريماً» [«شريفاً»] يُضاهي اللاتينية واليونانية، كما أشار مانويل سارتوري" [Manuel Sartori] (في مقاله: « La flexion désinentielle et l'arabe. État de la question et discussion d'arguments récents », ["حركات الإعراب والعربية. عرض الموضوع ومناقشة الحجج الأخيرة"] (٢٠١٨)).

ولكنْ قد يعترض البعضُ على الباحثين ("ڤالين"، و"فولَّرس"، و"إبراهيم أنيس"، و"أوينز"، و"ريتسو"، و"لارشيه"، و"لانسيوني"، و"سارتوري" وغيرِهم) بالقول إنَّ كتُب اللغة قد أوردَت أنَّ مِن قبائل العرب من كان لديه إعرابٌ في أواخر الكلمات ثابتٌ غالباً في كل لغة [لهجة]. فهذيل، مثلاً، كانت تُعرِب اسمَ الموصول "الذين" إعراب جمع المذكر السالم، فيقولون: "نَحْنُ الَّذُونَ صَبَّحوا الصَّبَاحا، * يَوم النُّخَيلِ غَارَةً مِلحاحا." (يُنسَب لليلى الأخيلية). وفي لغة تميم يَنصبون تمييزَ "كَم" الخبرية مفرداً (فيقولون: "كم دِرهماً!"، و"كم عبداً!".)، بينما في لغة غيرِهم يجب جَـرُّه ويجوز إفراده وجمعه (فيقال: "كم درهمٍ عندَك!"، و"كم عبيدٍ ملَكْتَ!"). وفي لغة الحجازيين يُنصَب الخبرُ بعد "ما" النافية (نحو: "ما هذا بشراً")، بينما تميم يرفعونه. وفي لغة أهل العالية ينصبون الخبر بعد "إنْ" النافية، (مثل: "إنْ أَحدٌ خَيراً من أحدٍ إلا بالعافية.") . والحجازيون يَنصبون خبر "ليس" مطلقاً، وبنو تميم يرفعونه إذا اقترن بـ"إلاَّ"، فيقول بنو تميم: "ليس الطيبُ إلاَّ المِسكُ". وفي لغة بني أسد يَصرفون ما لا ينصرف فيما عِلَّة منعِه الوصفية وزيادة النون (فيقولون: "لستُ بِسكرانٍ"). والحجازيون يَبنون الأعلام التي على وزن "فَعال" (كـ: "حَذامِ" و"قَطامِ") على الكسرِ في كل حالات الإعراب، بينما تميم تُعربها ما لم

يكن آخرها راءً وتمنعها من الصرف للعَلَمية والعدل، فإذا كان آخرها راءً (كـ"وَبارِ" [اسم قبيلة بائدة] و"ظَفارِ" [اسم مدينة]) فتكلَّموا بها كالحجازيين.

لا يُنكِر إبراهيم أنيس وجودَ هذه الحركات في أواخر بعض الكلمات. فهو يؤكِّد بأن الظواهر الإعرابية كانت قد استمدَّت خيوطَها من ظواهرَ لغويةٍ مُتناثرةٍ بين قبائل الجزيرة العربية (*من أسرار العربية*، ص ١٨٣). ولكنّه يشير إلى أنّ كل قبيلة كانت تلتزِم في لهجتها بحركة محدَّدة ثابتة لا تتغيَّر تِبعاً لتغيُّرِ محلِّ الكلمة في الجملة. مما يعني أنَّ هذه الحركات ليس لها وظيفة إعرابية نحوية، بل صوتية فقط، فلا تشير إلى فاعل ولا إلى مفعول. وبالتالي لَمْ يَكُنْ هناكَ إعراب في لُغاتِ العرب، بمعنى أنهم لم يَكُونوا يُغَيِّرون حركةَ آخرِ الكلمةِ بتغيير مَوقِعِها مِن الجملة.

ويوضح الباحث جواد علي (١٩٠٧ – ١٩٨٧) (في *المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ج ٤): «وتوحي الأحاديثُ الواردة في الحَثِّ على إعراب القرآن والكتبُ التي ألَّفها العُلماءُ في إعرابه أنَّ مِن العَربِ، مِن أهلِ مَدَرٍ [الحَضَر] وأهلِ وَبَرٍ [البدو]، مَن كان يَقرأُ القُرآنَ بغير إعراب، **إمّا لأنَّ لغته لم تكن معربةً، وإمّا لأنَ إعرابها كان لا يتُجانس مع إعراب القرآن**، وسببه أنّ الجاهليين لم يكونوا يتقيدون جميعاً بقواعد الإعراب، فمنهم من كان يتحلَّل منه، ومنهم من يعمل به وفق قواعدِ لغتِه ولهجته، ودليلُ ذلك قراءةُ الصحابةِ القرآنَ بألسنتهم، مما سبَّبَ في ظهور مشكلة القراءات، و هذا ما أخاف الصحابةَ، وجعلها تَخشى من احتمال ظهور قَرائين مختلفة، مِمَّا حَملَ "عثمانَ" على توحيد لغة القرآن، وتدوين كتاب الله حسب التوصيات التي أعطاها إلى اللُجنة التي كلَّفها بتدوينه.» ("المَدَرُ": الطِّين اللَّزِجُ المتماسك، و"أهل المَدَر": سُكّان البيوت المبنيّة [الحَضَر]، بخلاف "أهل الوبَرِ" وهُم سكّان الخِيام [البدو]).

ربما بسبب كون الحركات ليست من طبيعة العربية ولا من سليقة العرب (أو على الأقل أنَّ لُغات العرب تخلَّت عنها منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام وتتطوّر باتجاه التسهيل والتخفيف) فإنَّ هذه الحركاتِ بقيَت غريبةً ولَمْ تُستخدَمْ في الكتابات الرسمية إلاَّ في حالة الضرورة (باستثناء الكُتُبِ المقدَّسة).

فـ"العَرَبيَّةُ" الـمُزيَّنة بحركات الإعراب ليست الأصلَ الذي تفرَّعَت عنه اللَّهَجات من خلال سيرورة تَـقهقُرٍ سُمِّيَت "فَسادَ اللغة"، بَـلِ العكسُ، إنها بناءٌ [نظام لُغوي] مُستقِلّ بُنِيَ من عناصرَ موجودةٍ في هذه اللهَجات. (پيير لارشيه [Pierre Larcher]، « Qu'est-ce que l'arabe du Coran ? Réflexions d'un linguiste » ["ما هي عربية القرآن. تأمُّلات لُغوي"]). لِنُلاحِظْ ما قاله اللُّغويُّ العراقيُّ الكُوفيُّ ابْـنُ شُبرُمَةَ (القَرن الثامن) ناصحاً أبناءَ العرب أن يتعَلَّموا العربية: "إذا سرَّكَ أنْ تَعظُمَ في عينِ مَن كُنْتَ عندَهُ صغيراً ويَصْغُرُ في عينِكَ مَن كان عندكَ عظيماً فتَعَلَّمِ العربيَّةَ، فإنها تُجريكَ على الـمَنطِقِ وتُدْنيكَ مِن السُّلطانِ."[13] مما يدلُّ على أنَّ هذه "العربية" هي بِناء مُستقِلّ عن اللهَجات.

أنْ تَكونَ "العربية" لِساناً مصنوعاً من عدة لهجات وأن تكون حركاتُ الإعراب قد ابتكرَها صُنّاع العربية فإن هذا ليس عيباً ولا انتقاصاً من العربية في شيء. فجهودهم الـجَبّارة في خَلْقِ لِسان معياري موحَّد ما زال حيّاً أتاحَت تدوينَ تُراث لا يُستهان به.

**أهمّ الـمَراجع بالعربية:**


1. أنباري (الـ)، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشّار، (٢٧١–٣٢٨ هـ)، *إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل*، تحقيق محي الدين عبد الرحمن رمضان، مَجمَع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧١، ص ٣٤ – ٣٥.
2. أنيس، إبراهيم، *من أسرار العربية*، «الفصل الثالث: قصة الإعراب»، ص ١٨٣ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦.
3. زُبَيديّ (الـ)، أبو بكر محمد بن الحسن، *طبقات النحويين واللغويين*، دار المعارف، ١٩٨٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٣.
4. زَجَّاجي (الـ)، أبو القاسم، *الإيضاح في علل النحو*، تحقيق: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص ٧٠.
5. سيوطي (الـ)، جلال الدين، *الإتقان في علوم القُرآن*، النوع ٣٧ ["فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز"] والنوع ٣٨ ["فيما وقعَ فيه بغير لغة العرب"]، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، طبعة أولى، ٢٠٠٨.


[13] ابن شمس الخلافة، جعفر بن محمد ابن مختار الأفضلي، أبو الفضل، الملقب مجد الملك [ت. ٦٢٢ هـ]، *الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة*، ص ١١، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة، https://al-maktaba.org/book/5433/11.

6. سيوطي (ال–)، جلال الدين، *المُزهِر في علوم اللغة وأنواعها*، ج. ١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦.
7. صالح (ال–)، صبحي، *دراسات في فقه اللغة*، دار العِلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٢٢.
8. عبد التوَّاب، رمضان، *فصول في فقه العربية*، مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة سادسة، ١٩٩٩، ص ٣٧٧ – ٣٧٨.
9. علي، جواد، *المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ط٢، ١٩٩٣ ج. ٤.
10. مبارك (ال–)، عبد الحسين، *فقه اللغة*، «ظاهرة الإعراب في العربية»، جامعة البصرة، ١٩٨٦، https://almerja.com/reading.php?idm=54357.

**أهم المراجع بالفرنسية:**

1. AL-JALLAD Ahmad & VAN PUTTEN Marijn, "The Case For Proto-Semitic And Proto-Arabic Case: A Reply To Jonathan Owens", Leiden University, Romano-Arabica XVII, 2017.

2. AYOUB, Georgine, « Le Tout de la langue ou le malheur de l'infini : Une étude de la *Durrat al-Ghawwāṣṣ* de Ḥarīrī. » Dans *Paroles, Signes, Mythes, Mélanges J.-E. Bencheikh*, éd. F. Sanagustin, pp. 67-141. Institut Français d'Études Arabes à Damas, Damas. 2001.

3. AYOUB, Georgine, « Un idiome harmonieux et pur : Le trésor enseveli. » (2003). Dans : *Cent titres à l'usage des bibliothécaires, libraires et amateurs : Poésie de langue arabe*, éd. Jean-Charles Depaule, pp. 29-58. Centre International de Poésie, Marseille, 2003.

4. LARCHER, Pierre, « Qu'est-ce que l'arabe du Coran ? Réflexions d'un linguiste. » *Cahiers de linguistique de l'INALCO*, INALCO, 2008, n° 5, 2003-2005 [années de tomaison], pp.27-47. ⟨halshs-00246122⟩.

5. SARTORI, Manuel, « La flexion désinentielle et l'arabe. État de la question et discussion d'arguments récents ». *Case and Mood Endings in Semitic Languages – Myth or Reality? Désinences casuelles et modales dans les langues sémitiques – mythe ou réalité ?,* 2018. ⟨hal-02141828⟩.